حليمة

من تأليف : إسماعيل الخلفي .

من تأليف :

د.إسماعيل

الخلفي

إهداء

إلى كل أنثى،

ضحت وماتزال تضحي في وقتنا الحالي بالغالي والنفيس من أجل أسرتها اوقضية ما ، ومن بينهم روح جدتي وأمي الغاليتين، وإلى التي جعل منها القذر صذيقة، وزوجة، حبيبة، وسندي الذافئ في الحياة.....

تمهيد

تذور أحذاث القصة بالذار البيضاء،و في فترة ماقبل الإستعمار، حينما كان المجتمع المغربي يعيش فترة من القبلية،مرورا بسنوات الحماية الفرنسية على المغرب،وماكانت تعيشه الأسر المغربية آنذاك من معانات وتظحيات تجاه الوطن،لكن وللأسف لم يتذكر التاريخ دور المرأة في هاته الفترة،حيت كانت المضحية والمقاومة من ذون إنتظار عرفان الآخرين...

حليمة

قبل سنوات من الاستعمار الفرنسي، داخل أركان البلاد،وسط غمرة من الاستقرار، كانت تعيش حليمة وحيدة أبويها حياة عادية رغم بساطتها ،لكن لطالما آمنت بالحياة السعيدة التي تكون دائما وسط جو معيشي بسيط،كانت معظم الوقت تائهة بين أزقة الحي رفقة بعض الصديقات،رغم سنها الصغير الذي لا يتجاوز الخامس عشرة سنة إلا أنها دائما ما تكون القائدة والمتحكمة داخل تلك الخلية الصغيرة من الفتيات

اللواتي أحببنها بغض النظر عن صلابتها تجاههم في بعض الأحيان،تلك الصغيرة الجميلة حليمة،يعشقها كل من يراها في السوق،وقد أعجب بها الحاج محمد الذي أعتاد على رؤيتها.وهو تاجر السوق الغني والأنيق ،صاحب نفوذ داخل محيطه،فبالرغم من سنه المتقدم إلا أنه لا يزال يحتفظ ببنية قوية ونظارة بالوجه ،لكن هذه المرة وقد صاح في وجه شاب يشتغل بمحله، نحيل أسمر الوجه ((المتعلم عبدو)) بأن يسرع بخطواته خلف حليمة ليقتفي آثارها من بين أحياء المدينة القديمة...

هاهو ذا المتعلم عبدو قد عاد وبحوزته الخبر السعيد لمعلمه الحاج محمد، و بحلول المساء أعتم الرجل أجود ما لديه من ملبس وعطر من أجود الأنواع ،مغادرا منزله في اتجاهه لمسكن حليمة،أخد بعض الهدايا من سكر وخضر شاقا بهم طريقه وعبدو،إلى أن وصلوا عند باب خشبي مزركش بنقوش جميلة،وأخذ الحاج محمد بيده وطرق الباب بنعومة،لكي لا يفزع العروس وأبويها من هول الظلمة الحالكة في ربوع الحي الضيق..

هاهو عبد الرزاق أبو حليمة يفتح الباب ويستقبل ضيفه المميز بحفاوة للدخول،منزل

دافئ يبعث السكينة في القلوب رغم بساطته،وبين صب للشاي وكلام عن أحوال السوق،وبدون مقدمات،طرح الحاج فكرة الزواج على أب حليمة،لتكون الزوجة الثالثة له من بين زوجتين اثنتين تكبرانها سنا،وقد وافق الأب على قرار زواج إبنته بالحاج محمد،لأنه يعلم بجود وكرم المعلم محمد معه في السوق،

...فكيف وهو الآن نسيبه وأب لإحدى زوجاته

مر أسبوع على مرور الحاج بمنزل حليمة التي لم تكن راضية بزواجها هذا، داخل كنف رجل متعدد الزوجات. وبدأت الاستعدادات لعقد

القران وحليمة متخوفة من صراعات رقية وفاطمة زوجات محمد ضدها داخل رياض واحد،لكن استطاعت السعدية بأن تخفف مخاوف إبنتها حليمة..لكن لا تعلم العروس المسكينة بأن مخاوفها كانت إنذارا لما يكيدون لها من مكائد داخل الأضرحة،وعند الساحرات،وبيد أموات القبور،حتى لا يتم زواجها بالحاج.و بدخولها لبيتها المخصص لها بأحد أركان الرياض، رفقة محمد، أحست بأنه يضيق عليها كأنها داخل قبو مظلم ريحه كريه..اغتنمت حليمة المسكينة فرصة دخول زوجها الحمام،وهمت بالهروب ، لتدع من

ورائها كل آمالها بالاستقرار بجانب ذلك الرجل الطيب،لكن وللأسف تأتي الرياح بما لا تشتهيه السفن.عادت حليمة لمنزل والديها وفي عينيها خوف شديد و دموع بريئة،كأنها أفلتت من قبضة ذئب جائع، احتضنتها السعدية بقوة و بحزن شديد ،فقد علمت أن خوف أبنتها كان حاستها السابعة لحدوث أمر فضيع كهذا الذي حدث...

مر الليل،والحاج محمد علم عن قذارة زوجاته عندما اخبره عبد الرزاق بكل ما حصل وما أحست به الزوجة تلك الليلة الغير سعيدة،وأشترط الأب على الحاج بأن يشتري

لإبنته منزلا ولو بسيط،المهم هو أن إحساسها بالاطمئنان والاستقرار مثل الذي أحسته الآن رفقة والديها،لكن محمد رفض الشرط بدواعي العادات والتقاليد،وأخبره بأن الرياض هو ميراث الأجداد والأبوين،وأنه لن يتنازل عن لم شمل زوجاته داخل سقف واحد،مما جعل عبد الرزاق يطلب طلاق إبنته مقابل ذاك الشرط الذي لا رجعة فيه،فرغم فقره واحتياجه للمساعدة،لكن الأب كان يحب زوجته وأبنته الوحيدة أكثر من أي شيء آخر.وأعتنق في البيت السكون ليصيح الحاج محمد قائلا:"أعتذر يا سيد عبد الرزاق

لما فعلته زوجاتي لأبنتك حليمة،

لكني مازلت متشبثا بقرار المنزل الواحد،وأبنتك طالق إن كان ذلك سيسعدها.."

هكذا قال الحاج محمد بعد أن غادر حياة حليمة متشبثا بقراره،وترك من ورائه بداية رحلة جديدة لحليمة،لكن لم يعد للفتاة الجميلة المرحة رغبة في اللعب أو التجوال رفقة صديقاتها،مما جعلها حبيسة المنزل رفقة والدتها،التي لم تبخل عنها بشئ مما تعرفه من طبخ وتحمل للمسؤولية.ومرت سنتين على الحادث الأخير،واستطاعت

حليمة من أن تتخطى تلك الحقبة الأليمة،وعادت إلى خروجها رفقة أمها في بعض الأحيان،ومع بعض صديقاتها اللواتي لم يتزوجن بعد إلى حين أخر ، حتى رآها في يوم من الأيام عبد الله صاحب محل الأسماك المحبوب والطيب لدى باقي الباعة،وبدون أذني تفكير،قصد صاحبنا منزل الفتاة وتكلم رفقة أبيها،ووافق الأب بموافقة أبنته حليمة هده المرة،بعدما علمت أن ليس له زوجات،ولا يفكر في تعدد الزوجات،كما أنه يتيم ووحيد داخل منزل يشبه في بساطته منزل والديها...

مرت على تلك المقابلة عدة سنوات،أنجبت فيها حليمة ثلاث بنات أحسنت تربيتهم في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم،وفي يوم من الأيام جاء عبد الله إلى زوجته حليمة،وأخبرها بأنه سيغيب عن المحل والمنزل بضعة أيام،متجها إلى آسفي عند بعض الأصدقاء،لكي يجلب بعض البضائع من تلك المدينة الغنية بالأسماك..وفي فجر يوم الجمعة قام عبد الله للصلاة وبرفقة حليمة التي كانت قابعة داخل المطبخ،تحضر له وجبة الفطور وبعض من الخبز والعسل والشاي،يستعين بهم في غمرة الطريق

الطويلة،وقبل خروجه من المنزل،قبل عبد الله رأس زوجته متمتما ببعض الدعاء راضيا على ما تقوم به تجاهه وبناته،قائلا:"لقد أمرت المتعلم سعيد بأن يتكفل برعاية المحل وتوصيل كل ما تطلبونه منه ريثما أعود..."،و أتجه في طريقه وسط نظرات حب صادقة يتبادلانها،حتى صار بعيدا عن مرأى حليمة...

هاهو سعيد قادم،والذي تعود على زيارته اليومية لمنزل معلمه عبد الله،وبيده كيس به بعض الحاجيات المنزلية من زيت وسكر و شاي و كل ما يلزمها من خضراوات طازجة وأسماك و لحم البقر الفتي،وكعادته يطرق

الباب فينادي لها إن كانت تحتاج لشيء آخر،ويترك الكيس خلف الباب، لتنتشله بعد ذلك حليمة أو إحدى بناتها من الباب...

" من هؤلاء؟!"، هكذا تساءل سعيد وهو يفترش السمك ككل يوم بالمحل،وقد لاحظ مجموعة من العابرين الجدد بالسوق،لكن لباسهم وأشكالهم تختلف عن باقي الزوار من اليهود أو المسلمين."لابد من أن تكون لجنة مراقبة تابعة لفرانسيس"،قال كوهن التاجر اليهودي وصديق سعيد المحاذي لمحل عبد الله،وبصوت خافت بالقرب من سعيد لكي لا يحدث المشاكل مع هؤلاء الغرباء...

وعلى حين غرة،توافد أصحاب الربطة السوداء على المحل،وبدون مقدمات،صاح أحدهم بكل عجرفة بوجه سعيد:"ي اهذا..هل أنت صاحب هذا المتجر اللعين" ،لكن... وكأنه إبتلع لسانه ،وبوجه شاحب كأنه رأى ملك الموت أمامه،"نعم،هذا محل سعيد من زمان"،قال كوهن بعدما لم يجد اليهودي الماكر من صديقه الحميم سعيد أي جواب،وصارت الأعين تتحاور بين سعيد وكوهن،كأنه يبشره بخبى عظيم من وراء هذه الحيلة..وبدون تفكير صاح سعيد متلعثما هو الآخر :"سنغلق المتجر

اليوم،وتأتي غدا في الصباح بخمسة رجال من السوق،يشهدون لك بثبوتية المحل،لكي نوثق أوراقه"،عادت بسمة الفرحة و شيء من الإنتصار في محيا سعيد،فبعدما كان أجيرا رفقة معلمه عبد الله،سيصبح غدا المعلم سعيد بوثائق تثبت ذلك،بعدما طمأنه كوهن بأن يعتمد عليه في قضية الشهود قائلا:"لا تقلق يا سعيد فاليهود في كل مكان بسوق الملاح..."

جاء عبد الله فجر يوم السبت بعد غيابه عن منزله ومحله أسبوعين كاملين،متوجها برفقة صاحب شاحنة متوسطة الحجم بشحنة من

السمك الجيد وقطع من الثلج إلى السوق،وبعد عدة محاولات فاشلة لفتح قفل المحل لم يجد إلا أن يتجه إلى منزل سعيد.طرق عبد الله باب سعيد،ومن وراء تلك القطعة البالية من الخشب،صاح به قائلا:"لم يعد لك مكان في المحل يا عبد الله لأنه أصبح الآن ملكي وبأوراق الثبوتية،فلا تزعجني وإلا سخرت لك من يحجزك طوال حياتك في السجن".فقد عبد الله صوابه بعدما علم بأن سعيد قد قام بالنصب عليه وكوهن في فترة غيابه،وأشتعل غضبا وحاول بكل ما أوتي من قوة من أن يقتحم

المنزل وينتقم لنفسه،لكن تفاجئ بضرب العسكر الفرنسي له وسحبه من قدميه في مشه يدمى له القلب.علمت حليمة هي الأخرى ما حصل لزوجها ووشحت جلبابا أبيض متوجهة نحو المخفر،تسأل عن حال زوجها أو تستنجد بأحد الضباط لتركه وشأنه عسى أن تحن قلوب المستعمرين لها،لكن وقد باء كل تودها بالفشل،وجلست ساعات تبكي أمام الباب حتى غابت شمس الظهيرة مشبعة بحمرة،كأنها ترفع حجابها بخجل متضامنة مع نواح وويلات حليمة المسكينة،وهي تسترجع عثرات الماضي وتتخوف المستقبل،من دون

سند بعد وفاة الأب والأم واليوم قد سلبوا حرية زوجها ظلما...

مرت على تلك الأمسية الكئيبة شهرين، والأم اليتيمة تتقلب يمينا وشمالا في بيت صحفي فرنسي وزوجته،بين الغسل والطهي، كل ذلك من أجل جلب قوت يومها وبناتها.

من المفروض أن عبد الله سيخرج من المعتقل يوم غد،" أتسمحك عذرا يا إميلي،سأغيب غدا بسبب انشغالي بخروج زوجي..."، و بدون تردد وافقت تلك المرأة الطيبة على ذلك، و أقبلت حليمة بالمغادرة من منزل الزوجين الفرنسيين متجهة نحو

السوق،لكي تبتاع شيئا تستقبل به زوجها من حليب وثمر وبعض الحلوى."أمي، أطلقي الزغاريد، فقد عاد أبي"

ذلك أول ما نطقت به السعدية كبرى بناتها عندما فوجئت بوالدها عبد الله عند الباب،وفي يده كيس به بعض الملابس والأواني التي كانت حليمة تبعثها وبعض مما تعده من طعام في كل أوقات الزيارة.وقفت الأم بكل شوق وفي عينيها سيلا من الدموع،كأنها وبهذه الطريقة تشتكي لعبد الله عن ما كانت تعانيه في فترة سجنه،وبادرها بعناق قوي وهما يندبان حظهما العاثر بأنين

وبكاء قاطعنا بعض الجارات بطرقهم الباب ،ليباركن لحليمة عن خروج بعلها من ظلمة السجن و هوله...

ومرت الأيام والأب يفكر بكيفية إعالة بناته وزوجته،تلك المرأة القوية التي لم تشتكي يوما جلوسه في البيت،لكنه وهذه المرة قرر أن يشتري عربة بعجلتين و يشتري بعضا من أنواع الأسماك لبيعها ،و يستخير الله بها كذلك، لجلب قوت عياله،وقد وافقت حليمة على ذلك فقد أعياها الزمن ونظرات الناس لها بعد سجن الزوج.قامت الزوجة بخلع سلسلة وبعض مما كانت تتوشحه أثناء

ذهابها إلى الأعراس كطباخة لوليمة

الضيوف:"ما نفع هذه الخردة إن لم تنفعنا في

هده الأيام السوداء"،ورغم حبها لزينتها ككل

نساء العالم،فهناك عبد الله وبناتها الأغلى من

ذهب الدنيا.وبعد أخد ورد من الزوج،أستسلم

لطلب حليمة،وقام بشراء العربة و بضاعة لا

بأس بها من الأسماك،وقد عاد الإستقرار

والبسمة في وجه عبد الله،رغم ما تعرض له

من نصب ولكن:"لله ما أعطى،ولله ما

أخذ"،ذلك كان كل ما يردده عبد الله عندما

...يتذكر الحرامي سعيد وصديقه كوهن

مرت الأيام وعبد الله على حاله أمام منزله

يجهز عربته من أجل رزق حلال ،وإذا به يسمع صياح الخونة والعساكر الفرنسيين:"أمسك باللعين،قبل أن يختفي أثره.اللعنة إنه سريع"،هاهو عمر أحد جيرانه والذي كان عنصرا بارزا في خلية المقاومة ضد المستعمر،وفي يده مسدس قد فتك بواسطته أحد الضباط الفرنسيين وفر هاربا بذون عنوان،

إلى أن التقى بعبد الله الذي أمسك بإحدى ذراعيه وأمره بالدخول لمنزله والاختباء من دون أن يحدث ضجة ،وفتح بطن إحدى الأسماك الكبيرة ووضع بداخلها المسدس ثم

قام بتغطية السمكة بالثلج."أنت ! ألم ترى شخص يرتدي معطف أسود قد مر من هنا؟!"،مبادرين عبد الله بالسؤال،وقد طأطأ رأسه بالنفي،فأكملوا البحث عن الرجل حتى غابوا عن ناظريه،فأطمأن عمر وأخرج له المسدس من بطن السمكة،وشكره عمر على ذلك الجميل الذي لن ينساه طول حياته قائلا له:"لن أنسى لك هذا المعروف مهما حييت يا با حوتا" مبتسما وتاركا له لقبا عرف به عبد الله في كل الأحياء،كلقب يمثل العرفان وشجاعة الرجل،"أعزني الله مرة أخرى بهذا العمل بعدما كنت ذليلا في السجن"،مقاطعا

زوجته التي كانت لا تحبذ هذا اللقب من أن يطلق على زوجها...

مات "با حوتا" بعد معاناة،وترك من ورائه زوجة طيبة وبناتها،السعدية والتي تزوجت برجل من الجنوب وغادرت المنزل،فلا يسعها أن ترى أمها إلا في المناسبات والأعياد،و مليكة التي تزوجت بدورها بابن إحدى جارات حليمة،فلم يبقى في المنزل إلا ثريا،الابنة الصغيرة التي كانت تشتغل في إحدى مصانع كوهن وشريكه سعيد لخياطة السراويل والأقمصة ،فتعين أمها حليمة طباخة الأعراس في مصاريف المنزل:"الدرهم

حلال من عرق الجبين،أفضل من ملايين الدنيا إن كانت حراما"،توصي حليمة بنتها ثريا في كل مناسبة يتكلمن فيها عن مجموعة المصانع الخاصة بسعيد واليهودي كوهن...

وجدت ثريا شبيهة أمها الزوج الذي يمكن أن تحس بالأمان والاستقرار في حياتها،ومرت سنوات لتصبح أم لسبعة أبناء كانت حليمة المساعدة في تربيتهم،إلى أن فارقت الحياة مغادرة الى زوجها عبد الله ووالديها،"تلك المرأة القوية،التي عانت وضحت من أجل زوجها وبناتها.عاشت قوية شجاعة وماتت وفي وجهها ابتسامة النصر،فلطالما كانت

رمزا للقوة، والتضحية...لألم تمت

على الأقل لم تفارق قلوبنا يوما،ولن تموت مادامت أمنا حليمة في عقولنا...."،كل ذلك كنت أصيح به من داخلي آتجاه جدتي الحبيبة،ونحن نسير بها إلى متواها الأخير،وأنا متمسك بيد الإبنة الحزينة ثريا التي هي أمي.أحاول تثبيتها على الصبر "...قائلا:"هم السابقون ونحن ٱلاحقون ياأماه

تلك كانت حياة حليمة،المرأة المقاومة آتجاه أسرتها،ومايزال طيف روحها يطوف بين الأرجاء،على الرغم ممن يود إساءة سمعة

تلك المضحية،لكن مايزال إسمها يفرض على كارهين كل ماهو جميل بريح الورود...

أفضل الناس لديهم إحساس بالجمال، وشجاعة لخوض المخاطر، وإنضباط يُمّكنهم من قول الحق، وقدرة على التضحية. والمفارقة أن تلك الفضائل عينها هى التى تجعلهم عرضة للهجوم: كثيراً ما يُجرحون، وأحيانا يُدَمَرون. – إرنست همينغوي